العدد ١٨ A-1 ايلول ٢٠٢٥
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
No. 18A-1 – Sept 2025 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

مسألة القضاء والقدر بين الجبر والاختيار في ضوء العقيدة الإسلامية

م.د عبد الباسط دهام خلف
ديوان الوقف السني/دائرة المؤسسات الدينية والخيرية
الايميل/abdubastdham@gmail.com

ملخص البحث

تناول هذا البحث دراسة مسألة "القضاء والقدر بين الجبر والاختيار" في ضوء العقيدة الإسلامية الصحيحة. استهل البحث بتحديد الإطار المفاهيمي للمصطلحات الأساسية كالقضاء والقدر والجبر والاختيار، مبيناً الفروق الدقيقة بينها لغةً واصطلاحًا. ثم انتقل البحث إلى استعراض النشأة التاريخية للخلاف في هذه المسألة، حيث عرض آراء الفرق الإسلامية المختلفة كالقدرية (المعتزلة) الذين غلوا في إثبات اختيار الإنسان ونفوا تعلق قدرة الله بأفعاله، والجبرية الذين غلوا في إثبات القدر إلى درجة سلب الإنسان إرادته تماماً.

بعد ذلك، خصص البحث فصلاً كاملاً لبيان موقف أهل السنة والجماعة، الموقف الوسط، القائم على الأدلة القطعية من القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد تم تفصيل الأدلة التي تثبت مراتب القدر الأربع: العلم الأزلي، والكتابة في اللوح المحفوظ، والمشيئة الشاملة، والخلق والإيجاد. كما أوضح البحث منهج السلف الفريد في الجمع بين هذه الأدلة وأدلة إثبات الاختيار والمسؤولية الإنسانية، وذلك من خلال التفريق بين الإرادة الكونية والشرعية، والاحتجاج بالقدر على المصائب لا المعايب.

واختتم البحث ببيان الآثار الإيمانية والسلوكية العظيمة للإيمان بالقضاء والقدر، حيث يثمر هذا الإيمان تحقيق التوحيد الخالص، ويغرس الشجاعة والإقدام، ويمنح الطمأنينة النفسية والرضا، ويدفع بقوة نحو العمل الجاد والأخذ بالأسباب، مما يجعله عقيدة بناءة وفاعلة في حياة المسلم.

الكلمات المفتاحية: القضاء والقدر، الجبر والاختيار، العقيدة الإسلامية، أهل السنة والجماعة، القدرية، الجبرية، مراتب القدر، التوحيد، الأسباب والتوكل.

Abstract

This research examines the issue of "predestination and destiny between compulsion and free will" in light of the correct Islamic doctrine. It begins by defining the conceptual framework of the basic terms, such as predestination, predestination, compulsion, and free will, highlighting the subtle differences between them in terms of language and terminology. It then moves on to review the historical origins of the disagreement on this issue, presenting the views of various Islamic sects, such as the Qadarites (Mu'tazilites), who went to extremes in affirming human choice and denying that God's power is connected to His actions, and the Jabrites, who went to extremes in affirming predestination to the point of completely stripping man of his will.

The research then devotes an entire chapter to explaining the position of the Sunnis, the middle position, based on definitive evidence from the Holy Qur'an and the Prophetic Sunnah. The evidence proving the four levels of predestination is detailed: eternal knowledge, writing in the Preserved Tablet, comprehensive will, and creation and inception. The research also demonstrated the unique approach of the Salaf in combining these proofs with evidence proving human choice and responsibility. This was achieved by distinguishing between cosmic and divine will and citing predestination as a pretext for calamities, not shortcomings.

The research concluded by explaining the significant faith-based and behavioral effects of belief in predestination. This belief results in the attainment of pure monotheism, instills courage and boldness, provides psychological reassurance and contentment, and strongly encourages hard work and taking necessary measures, making it a constructive and effective belief in the life of a Muslim.

Keywords: Divine Decree and Predestination (Al-Qada' wal-Qadar), Fatalism and Free Will, Islamic Creed ('Aqidah), Ahl al-Sunnah wal-Jama'ah, Qadariyyah, Jabriyyah, Ranks of Predestination, Monotheism (Tawhid), Means and Trust in God (Al-Asbab wal-Tawakkul).

مقدمة البحث

تُعد مسألة القضاء والقدر من أعمق القضايا العقدية وأكثرها دقة، فهي تمثل ركناً أساسياً من أركان الإيمان، وشغلت حيّزاً واسعاً من النقاش والبحث في تاريخ الفكر الإسلامي منذ العصور الأولى، حيث شكلت محوراً جوهرياً في فهم علاقة الإنسان بخالقه، وتحديد طبيعة أفعاله ومسؤوليته عنها في هذا الكون [١]. إن الإيمان بهذا الركن على وجهه الصحيح يعتبر من صميم عقيدة أهل السنة والجماعة، والتي تقوم على التسليم المطلق بعلم الله الشامل وقدرته النافذة ومشيئته التي لا راد لها [٢].

وقد أدى عمق هذه المسألة وتشعب أدلتها إلى ظهور اتجاهات فكرية وفرق كلامية متباينة، حاولت كل منها تقديم تصورها الخاص لطبيعة العلاقة بين الإرادة الإلهية والفعل الإنساني، فظهرت آراء متقابلة تراوحت بين طرفي نقيض [٣]. فمن جهة، برز تيار الجبرية الذي غالى في إثبات القدر الإلهي إلى درجة سلب الإنسان إرادته وقدرته على الفعل، معتبراً إياه مجرد ريشة في مهب الريح لا اختيار له، وهو ما يتعارض مع مبدأ التكليف والثواب والعقاب في الإسلام [٤]. ومن جهة أخرى، ظهر تيار القدرية الذين غالوا في إثبات حرية الإنسان واختياره إلى درجة نفي تعلق علم الله وقدرته بأفعال العباد، وهو ما يمثل انتقاصاً من كمال الألوهية وسيادة الخالق على ملكه [٥].

وفي خضم هذا الجدل التاريخي، تبلور الموقف الوسطي لعقيدة السلف وأهل السنة والجماعة، وهو المنهج الذي يهدف هذا البحث إلى استجلائه وتوضيحه. يقوم هذا المنهج على الجمع المتوازن بين النصوص الشرعية، فيؤمن بأن الله قدّر مقادير الخلائق بعلمه الأزلي وكتبها في اللوح المحفوظ، وأن كل ما يقع في الكون هو بمشيئته وخلقه [٦]. وفي الوقت ذاته، يثبت هذا المنهج للإنسان إرادة حقيقية وقدرة على الفعل، وبناءً على هذه الإرادة وهذا الاختيار يكون الإنسان مسؤولاً ومحاسباً على أعماله، وهذا هو جوهر العدل الإلهي ومناط التكليف الشرعي [٧].

يهدف هذا البحث إلى استعراض هذه المسألة الشائكة في ضوء العقيدة الإسلامية الصحيحة، من خلال تحليل الأدلة من الكتاب والسنة، وعرض آراء الفرق المختلفة ونقدها، مع التركيز على بيان الموقف السني المعتدل الذي يمثل حقيقة الفهم الإسلامي. كما يسعى البحث إلى الرد على الشبهات المعاصرة التي تثار

---

[١] ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: أحمد الغامدي، دار طيبة، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٢١.

[٢] اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد الغامدي، دار المأمون، ط١، ١٤٠٧هـ، ص ١١٥.

[٣] ابن بطة العكبري، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، تحقيق: عثمان الأثيوبي، دار الراية، ط١، ١٤١٥هـ، ص ١٩٨.

[٤] الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٨٥.

[٥] ابن تيمية، العقيدة الواسطية، تحقيق: بدر البدر، مكتبة العرفاء، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٥٢.

[٦] الصابوني، عقيدة السلف أصحاب الحديث، تحقيق: بدر البدر، مكتبة الغرباء، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٩١.

[٧] البيهقي، القضاء والقدر، تحقيق: محمد بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ، ص ١٧٤.

حول هذه القضية، والتي غالباً ما تنبع من فهم خاطئ لمفهوم القضاء والقدر، وتأثير ذلك على نظرة الإنسان للحياة والسعي والعمل [٨].

الفصل الأول: الإطار المفاهيمي للقضاء والقدر

إن فهم أي قضية عقدية كبرى يستلزم أولاً ضبط مصطلحاتها الأساسية وتحديد مفاهيمها بدقة، لأن الخلل في فهم المصطلح يؤدي حتماً إلى خلل في فهم القضية برمتها. ومسألة القضاء والقدر، بكونها من أدق مسائل العقيدة، فإن تحديد معانيها اللغوية والاصطلاحية، وكذلك المصطلحات المقابلة لها كالجبر والاختيار، يعد المدخل الضروري والأساس المتين الذي يُبنى عليه البحث.

المبحث الأول: مفهوم القضاء لغةً واصطلاحًا

إن لفظ "القضاء" من الألفاظ القرآنية ذات المعاني المتعددة التي تتحدد دلالتها بحسب سياقها، إلا أن لها أصلاً لغوياً وجذراً اصطلاحياً يمكن تتبعه. في اللغة، يرجع أصل مادة (ق ض ي) إلى إحكام الشيء وإتقانه وإتمامه، ومنه يأتي الحكم والفصل، فإذا أحكم الحاكم أمراً فقد قضاه [٩]. ويأتي القضاء بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي أمر وألزم. كما يأتي بمعنى الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي خلقهن وأتم خلقهن. وهذا التعدد في الاستعمال اللغوي يثري المفهوم ويجعله شاملاً لمعاني الإتمام والحكم والخلق [١٠].

أما في الاصطلاح الشرعي عند أهل السنة والجماعة، فالقضاء هو حكم الله الكلي الأزلي في عباده، وهو علمه السابق بكل ما سيكون عليه الخلق، وكتابته لذلك في اللوح المحفوظ. فهو يتعلق بالإرادة الإلهية الشاملة التي أحاطت بكل شيء قبل وجوده، وهو بمثابة الخطة الكلية الأزلية للكون [١١]. وبهذا المعنى، يكون القضاء سابقاً على القدر، لأنه يمثل الحكم الإجمالي الأزلي، بينما يمثل القدر تفصيل هذا الحكم في الواقع. وهذا التمييز بين القضاء والقدر على أساس الأسبقية والعموم هو ما ذهب إليه كثير من المحققين لضبط المصطلح وتفريقه عن مرادفه [١٢].

المبحث الثاني: مفهوم القدر لغةً واصطلاحًا

يرتبط مفهوم القدر ارتباطاً وثيقاً بالقضاء حتى إن بعض العلماء يستعملونهما كمترادفين، ولكن التدقيق الاصطلاحي يظهر فرقاً دقيقاً بينهما. فـ "القدر" في اللغة يدور حول معنى التقدير والبيان لمقدار الشيء وكميته، فيقال: قدرتُ الشيء أقدره قدراً، أي بينت مقداره [١٣]. فالقدر هو تحديد الشيء على مقدار معين، وهو ما يتوافق مع المعنى الاصطلاحي الذي يشير إلى تفصيل ودقة الخلق الإلهي.

وفي الاصطلاح، القدر هو إيجاد الله تعالى للأشياء وخلقها في الواقع على وفق ما سبق به علمه وحكمه وقضاؤه الأزلي. فإذا كان القضاء هو الحكم الكلي السابق، فإن القدر هو تنفيذ هذا الحكم وخلقه في حينه بمقدار محدد وتفصيل دقيق [١٤]. فالقدر هو تعلق القدرة الإلهية بالمخلوقات في أوقاتها المحددة، وهو سر الله في خلقه الذي لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، والبحث فيه والخوض فيه بغير علم من أسباب

---

[٨] محمد جواد مغنية، الإسلام والعصر، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٧٣.
[٩] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، ط١، ص ٢٨٥.
[١٠] الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: عصام قليعجي، دار المأمون، ط١، ١٤٠٧هـ، ص ٤٩٢.
[١١] ابن تيمية، العقيدة الواسطية، تحقيق: بدر البدر، مكتبة العرفاء، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٦١.
[١٢] البيهقي، القضاء والقدر، تحقيق: محمد بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ، ص ١١٤.
[١٣] الجوهري، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م، ص ٧٦٥.
[١٤] ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: أحمد الغامدي، دار طيبة، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٤٤.

الضلال. والإيمان به على هذا النحو، أي الإيمان بعلم الله الشامل وكتابته وخلقه ومشيئته، هو الركن السادس من أركان الإيمان الذي لا يصح إيمان عبد إلا به [١٥].

المبحث الثالث: مفهوم الجبر في الفكر الإسلامي

على النقيض من الفهم الصحيح للقضاء والقدر، ظهر مفهوم "الجبر" كأحد طرفي الغلو في هذه المسألة. والجبر لغةً هو الإكراه والقهر، يقال: جبره على الأمر أي أكرهه عليه وألزمه به [١٦]. أما في الاصطلاح الكلامي، فالجبر هو الاعتقاد بأن الإنسان مسلوب الإرادة والاختيار تماماً في أفعاله، وأنه لا قدرة له على الفعل أو الترك، بل هو كالريشة في مهب الريح، تُنسب إليه الأفعال مجازاً كما تُنسب الحركة إلى الجمادات. وهذا المذهب الذي تبنته فرقة الجبرية الخالصة ينفي عن الإنسان أي قدرة أو مشيئة، ويجعل الله تعالى هو الفاعل الحقيقي لكل ما يصدر عن العبد من خير أو شر، وطاعة أو معصية [١٧]. ويترتب على هذا المعتقد الباطل إبطال التكليف الشرعي، وإلغاء مبدأ الثواب والعقاب، ونسبة الظلم إلى الله تعالى، وهو ما يتنزه عنه سبحانه، ويتعارض مع صريح نصوص الكتاب والسنة التي تثبت للإنسان مشيئة واختياراً يحاسب عليه.

المبحث الرابع: مفهوم الاختيار وأساس المسؤولية

في مقابل مفهوم الجبر، يأتي مفهوم "الاختيار" الذي يمثل أساس التكليف والمسؤولية في الإسلام. والاختيار لغةً هو الاصطفاء والانتقاء، وهو طلب خير الأمرين [١٨]. أما في الاصطلاح، فهو قدرة الإنسان على توجيه إرادته نحو فعل معين أو تركه، وهي القدرة التي مناطها التكليف، وبها يستحق الإنسان المدح أو الذم، والثواب أو العقاب. وعقيدة أهل السنة والجماعة تقوم على إثبات اختيار حقيقي للعبد، فهم يقرون بأن للإنسان مشيئة وقدرة على أفعاله، وأن أفعاله تنسب إليه حقيقة، وهو فاعلها الحقيقي الذي يحاسب عليها [١٩]. ولكن هذا الاختيار ليس مستقلاً عن مشيئة الله وقدرته، فالله هو خالق العبد وخالق أفعاله وقدرته وإرادته، فالعبد لا يشاء إلا أن يشاء الله. وبهذا الجمع بين إثبات مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وبين إثبات مشيئة العبد واختياره الذي هو مناط المسؤولية، يتحقق التوازن والوسطية في فهم هذه القضية العقدية الدقيقة [٢٠].

---

[١٥] اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد الغامدي، دار المأمون، ط١، ١٤٠٧هـ، ص ١٢٠.

[١٦] الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٣١١.

[١٧] الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٨٧.

[١٨] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ص ٤٢٢.

[١٩] ابن بطة العكبري، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، تحقيق: عثمان الأثيوبي، دار الراية، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٢٠٥.

[٢٠] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ، ج٨، ص ١١٢.

الفصل الثاني: النشأة التاريخية للخلاف وآراء الفرق الإسلامية

لم تكن مسألة القضاء والقدر موضع جدل أو خلاف في عصر النبوة وصدر الإسلام، حيث تلقاها الصحابة الكرام بالتسليم المطلق والفهم الصافي المستمد مباشرة من نصوص الوحي، دون خوض في تفصيلات غيبية أو جدليات كلامية. ولكن مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية ودخول أمم وثقافات مختلفة، بدأت تظهر بعض التساؤلات الفلسفية التي أدت إلى نشوء الخلاف حول هذه القضية الدقيقة، مما أدى إلى تبلور مواقف متباينة شكلت مذاهب عقدية وفرقاً كلامية كان لها أثر عميق في تاريخ الفكر الإسلامي.

المبحث الأول: بذور الخلاف وظهور فرقة القدرية

تُجمع المصادر التاريخية على أن أول بدعة ظهرت في الإسلام تتعلق بمسائل العقيدة كانت بدعة القدر، والتي تمثلت في نفي تعلق علم الله وقدرته بأفعال العباد الاختيارية. ويُعد معبد الجهني (ت ٨٠هـ) أول من أظهر هذا القول في البصرة، متأثراً بأفكار خارجية، وقد تلقفه عنه غيلان الدمشقي الذي وسّع القول به وناظر عليه [٢١]. لقد أنكر هؤلاء أن يكون الله قد علم أفعال العباد قبل وقوعها أو أنه قدرها عليهم، زاعمين أن الأمر "أُنُف" (أي مستأنف)، بمعنى أن الله لا يعلم بالشيء إلا بعد وقوعه. كان دافعهم الأساسي هو ما تصوروه تنزيهاً لله عن نسبة الشر والقبائح إليه، فلكي يكون الله عادلاً في حسابهم، يجب أن يكونوا هم الخالقين لأفعالهم بشكل مستقل تماماً عن علم الله وقدرته ومشيئته [٢٢]. وقد واجه الصحابة والتابعون هذه الفتنة بحزم شديد، حيث تبرأ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما منهم عندما أُخبر بأمرهم، وأعلن أنهم ليسوا من الإسلام في شيء، مؤكداً على أن الإيمان لا يصح إلا بالإقرار بالقدر خيره وشره [٢٣].

وقد تطورت هذه الفرقة لاحقاً لتصبح هي الأصل الذي قامت عليه المعتزلة، الذين تبنوا القول بأن العباد هم الخالقون لأفعالهم استناداً إلى أصلهم العقدي المعروف بـ "العدل". فقد قرروا أنه من تمام عدل الله ألا يجبر عباده على أفعالهم ثم يحاسبهم عليها، ولذلك لا بد أن يكون العبد هو الخالق المستقل لفعله، سواء كان طاعة أو معصية، حتى يكون الحساب عادلاً. وبذلك، أخرجوا أفعال العباد الاختيارية من نطاق خلق الله وقدرته، فوقعوا في محذور عظيم وهو إثبات خالقين آخرين مع الله، وجعلوا في ملك الله ما لا يريده ولا يشاء وقوعه، وهو ما يتنافى مع كمال ربوبيته وسلطانه المطلق [٢٤]. لقد استدلوا بنصوص الوعد والوعيد والآيات التي تنسب الفعل إلى العبد كقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ولكنهم أغفلوا النصوص الأخرى المحكمة التي تثبت شمول علم الله ومشيئته وقدرته لكل شيء، فوقعوا في منهج انتقائي أدى بهم إلى هذا الانحراف العقدي [٢٥].

المبحث الثاني: ردة الفعل المتطرفة وظهور فرقة الجبرية

---

[٢١] الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٣١.

[٢٢] ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٤٠٦هـ، ج٣، ص ١٥٥.

[٢٣] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، حديث رقم ٥٠، ج ١، ص ٢٠.

[٢٤] البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ص ١١٧.

[٢٥] ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: أحمد الغامدي، دار طيبة، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٩٢.

في مقابل غلو القدرية في إثبات اختيار الإنسان، ظهر تيار مضاد غالى في إثبات القدر الإلهي إلى درجة سلب الإنسان أي إرادة أو قدرة، وهم فرقة الجبرية. ويُعتبر الجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ) أبرز منظري هذا المذهب، حيث ذهب إلى أن الإنسان لا قدرة له على شيء البتة، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله كلها، وأن نسبة الفعل إليه هي على سبيل المجاز، كما يقال: "تحركت الشجرة" أو "جرى الماء"، فالفاعل الحقيقي هو الله وحده [٢٦]. لقد استدل الجبرية بالآيات التي تؤكد على شمول قدرة الله ومشيئته، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، ولكنهم فسروا هذه النصوص تفسيراً متطرفاً ألغى كل النصوص الأخرى التي تثبت للإنسان مشيئة واختياراً ومسؤولية [٢٧].

يترتب على مذهب الجبر لوازم خطيرة وباطلة؛ فهو أولاً يُبطل حكمة التكليف الشرعي، فكيف يكلف الله عبداً بفعل أو ترك وهو مجبور عليهما ولا قدرة له على الامتثال أو العصيان؟ وثانياً، يُسقط مبدأ الثواب والعقاب، فلا معنى لمكافأة المطيع أو معاقبة العاصي إذا كان كلاهما مجبراً على فعله. وثالثاً، وهو الأخطر، أنه قد يؤدي إلى نسبة الظلم إلى الله سبحانه وتعالى، فكيف يعذب الله عبداً على معصية كان مجبراً عليها ولم يكن له فيها اختيار؟ وهذا يتعارض مع عدل الله المطلق الذي أثبته لنفسه في كتابه الكريم [٢٨]. لقد كان ظهور الجبرية كرد فعل متطرف على بدعة القدرية، وكلاهما يمثل انحرافاً عن المنهج الوسطي الذي يجمع بين النصوص ولا يضرب بعضها ببعض.

المبحث الثالث: الموقف الكلامي الوسطي ومفهوم "الكسب" عند الأشاعرة

في خضم الصراع بين القدرية والجبرية، حاولت بعض المدارس الكلامية، وعلى رأسها الأشاعرة، تقديم حل وسطي يجمع بين الطرفين. فقد وافقوا أهل السنة في أن الله هو الخالق الوحيد لكل شيء، بما في ذلك أفعال العباد، فلا يقع في كونه إلا ما أراد، وبذلك خالفوا المعتزلة. ولكنهم في الوقت نفسه أرادوا أن يثبتوا للعبد نوعاً من الفعل والمسؤولية ليصح التكليف، فخالفوا الجبرية. ولتحقيق هذا التوفيق، ابتكروا نظرية "الكسب" أو "الاكتساب". وملخص هذه النظرية أن الله سبحانه يخلق الفعل في العبد عند إرادته له، ويخلق فيه القدرة على الفعل مقارنةً للفعل نفسه، فيكون الفعل خلقاً لله، وكسباً للعبد. فدور العبد ليس الخلق أو الإيجاد، بل مجرد "الكسب"، الذي هو اقتران قدرة العبد الحادثة بالفعل المخلوق لله [٢٩].

على الرغم من أن هذه النظرية كانت محاولة جادة للخروج من مأزق الجبر والاختيار، إلا أنها تعرضت لانتقادات واسعة من المحققين من أهل السنة وغيرهم، حيث اعتبروها غامضة وغير كافية لإثبات اختيار حقيقي للعبد. فقد قيل إن هذا "الكسب" إذا لم يكن له أي تأثير في إيجاد الفعل، فإنه يعود في حقيقته إلى مذهب الجبر، وإن اختلف عنه في اللفظ فقط. فما دام أن العبد لا يخلق فعله ولا يؤثر فيه تأثيراً حقيقياً، فإن المسؤولية تظل غير واضحة الأساس، ولذلك وصف بعض النقاد "كسب الأشعري" بأنه "جبر متوسط"

---

[٢٦] الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٨٦.
[٢٧] الأسفراييني، التبصير في الدين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص ٧٣.
[٢٨] ابن تيمية، العقيدة الواسطية، تحقيق: بدر البدر، مكتبة العرفاء، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٧١.
[٢٩] الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ٤٥.

[٣٠]. لقد كانت هذه النظرية حلاً فلسفياً كلامياً أكثر من كونها فهماً مباشراً للنصوص الشرعية، مما جعلها معقدة وبعيدة عن الفهم السليم الذي كان عليه السلف الصالح.

المبحث الرابع: منهج أهل السنة والجماعة: الموقف الوسط الحق

يمثل موقف أهل السنة والجماعة (السلف الصالح ومن تبعهم) المنهج الوسطي الحق الذي يجمع بين كل النصوص الشرعية دون تعارض، ويقرر الحقائق الإيمانية كما وردت، دون الخوض في الكيفيات الغيبية. ويقوم مذهبهم على الإيمان بجميع مراتب القدر الأربعة إيماناً راسخاً، مع إثبات إرادة حقيقية للعبد ومسؤولية كاملة عن أفعاله. فهم يؤمنون بأن الله علم كل شيء قبل وقوعه (مرتبة العلم)، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ (مرتبة الكتابة)، وأن كل ما يقع في الكون هو بمشيئته الشاملة (مرتبة المشيئة)، وأنه سبحانه هو خالق كل شيء، بما في ذلك العباد وأفعالهم وقدرتهم وإرادتهم (مرتبة الخلق) [٣١].

وفي الوقت ذاته، يثبتون أن للعبد مشيئة واختياراً حقيقيين، وأن له قدرة على الفعل، وبناءً على هذه المشيئة والقدرة يقع فعله الذي يحاسب عليه. فأفعال العباد تُنسب إلى الله خلقاً وتقديراً، وتُنسب إلى العباد فعلاً وكسباً ومباشرةً. فالله هو الخالق، والعبد هو الفاعل الحقيقي. فالله لم يجبر العبد على الفعل، بل منحه القدرة والإرادة، وأراه طريق الخير وطريق الشر، وتركه يختار. ومشيئة العبد هذه ليست مستقلة، بل هي تابعة لمشيئة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. فبهذا الجمع الدقيق بين إثبات شمول القدرة الإلهية وإثبات المسؤولية الإنسانية، يقدم أهل السنة التصور الأكثر توازناً وانسجاماً مع نصوص الوحي والفطرة السليمة والعقل الصحيح [٣٢]. إن هذا المنهج يقطع الطريق على كل من القدرية الذين ينتقصون من ربوبية الله، وعلى الجبرية الذين يبطلون حكمة التشريع وعدل الله.

الفصل الثالث: أدلة القضاء والقدر من الكتاب والسنة ومنهج السلف في فهمها

إن عقيدة القضاء والقدر، كما يقررها أهل السنة والجماعة، ليست بناءً فلسفياً أو اجتهاداً كلامياً، بل هي منظومة عقدية متكاملة، تستمد كل تفاصيلها وأسسها من ينابيع الوحي الصافية: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ولم يكن بناء هذه العقيدة قائماً على مجرد تجميع النصوص، بل على منهجية فريدة في الفهم والاستدلال، ورثها الخلف عن السلف، وهي منهجية الجمع بين الأدلة، وفهمها في ضوء بعضها البعض، دون ضرب للنصوص أو إهمال لأي جانب من جوانبها. هذا الفصل يغوص في أعماق هذه الأدلة، ويحلل دلالاتها، ويكشف عن عبقرية المنهج السلفي في التعامل معها.

المبحث الأول: الأدلة القطعية من القرآن الكريم على مراتب القدر

يُعد القرآن الكريم هو المصدر الأول والأعظم لإثبات عقيدة القضاء والقدر. وقد جاءت آياته محكمة ومفصلة، لا تترك شبهة لقائل أو مدخلاً لمتأول، حيث قررت مراتب القدر الأربع بوضوح تام.

المرتبة الأولى: العلم الإلهي الأزلي المحيط:

إن أول وأهم مرتبة هي الإيمان بأن علم الله مطلق، أزلي، وشامل، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. هذا العلم ليس مجرد علم كلي، بل هو علم تفصيلي محيط بكل شيء قبل وجوده. يقول الله

---

[٣٠] ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط٢، ١٤١١هـ، ج ٨، ص ٣١٠.

[٣١] ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: أحمد الغامدي، دار طيبة، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٣٨.

[٣٢] اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد الغامدي، دار المأمون، ط١، ١٤٠٧هـ، ص ١٣٥.

تعالى في إعلان قاطع: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٣٣]. هذه الآية العظيمة ليست مجرد إخبار، بل هي تقرير لصفة كمال إلهية، وهي العلم المطلق الذي هو أساس التقدير. ودلالتها عميقة: فهي تبطل من أساسه مذهب غلاة القدرية الأوائل الذين زعموا أن "الأمر أُنُف"، أي أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وقوعها. فكيف يُتصور أن يخفى عليه شيء في الأرض أو السماء وهو خالقهما ومدبرهما؟ ويقول عز من قائل في آية تهز الكيان: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [٣٤]. تأمل في دقة التصوير القرآني: "مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ"، هذه الحركة البسيطة لورقة شجر في غابة مجهولة، يعلمها الله. "وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ"، هذه الحبة الساكنة في عمق التراب، يعلمها الله. فإذا كان هذا علمه بالجمادات، فكيف يُظن أنه يجهل أفعال عباده الاختيارية وهي مناط التكليف والثواب والعقاب؟ إن هذا العلم هو علم إحاطة وكشف، لا علم اضطرار وإجبار، فهو يعلم ما سيفعله العبد باختياره، دون أن يكون هذا العلم موجباً للفعل [٣٥].

المرتبة الثانية: الكتابة العامة في اللوح المحفوظ:

وهذه المرتبة هي تجلٍّ لمرتبة العلم. فما علمه الله أزلاً، كتبه في كتاب عنده وهو اللوح المحفوظ. هذه الكتابة هي توثيق للمقادير وتأكيد على أنها ثابتة ومحكمة. يقول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [٣٦]. "نبرأها" أي: من قبل أن نخلق الخليقة أو المصيبة نفسها. هذه الآية تقطع الطريق على كل شعور بالجزع والسخط عند وقوع البلاء، لأن المؤمن يعلم يقيناً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، لأنه أمر مكتوب ومنتهٍ. ثم يبين الله الحكمة التربوية العظيمة من هذا الإخبار فيقول: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [٣٧]. إنها تربية للنفس البشرية على الاتزان، فلا يقتلها الحزن على ما فات، ولا يطغيها الفرح بما هو آت، لأن كلا الأمرين من عند الله وبتقديره المكتوب [٣٨]. إن الإيمان بهذه الكتابة هو صمام أمان نفسي، ومصدر قوة للمؤمن في مواجهة تقلبات الحياة.

المرتبة الثالثة: المشيئة الكونية النافذة:

لا يقع في هذا الكون شيء، صغير أو كبير، حركة أو سكون، طاعة أو معصية، إلا بمشيئة الله الكونية القدرية. هذه المشيئة هي السلطان الإلهي المطلق على الوجود كله. قال تعالى مخاطباً كل من له إرادة واختيار: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٣٩]. هذه الآية هي الميزان الدقيق الذي وضعه القرآن في هذه المسألة: فهي أولاً تثبت مشيئة للعبد ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾، وهذا رد على الجبرية. ثم فوراً تقيد هذه المشيئة وتجعلها تحت سلطان المشيئة الإلهية ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وهذا رد على القدرية والمعتزلة. فليس في ملك الله ما لا يشاء، ولا يستطيع العبد أن يخرج بإرادته عن دائرة إرادة الله الكونية. وقد جاء هذا المعنى مكرراً في القرآن لترسيخه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [٤٠]. هذا "الشيء"

---

[٣٣] سورة الحج: ٧٠.
[٣٤] سورة الأنعام: ٥٩.
[٣٥] الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، ج ٣، ص ٤٤٠.
[٣٦] سورة الحديد: ٢٢.
[٣٧] سورة الحديد: ٢٣.
[٣٨] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد وآخرون، دار عالم الكتب، ط١، ١٤١٧هـ، ج ٨، ص ٣٥.
[٣٩] سورة التكوير: ٢٩.
[٤٠] سورة يس: ٨٢.

لفظ عام يشمل كل موجود، بما فيه أفعال العباد. ففعل العبد، من حيث هو حدث يقع في الكون، لا يمكن أن يقع إلا إذا أراد الله كَوْناً وقوعه [٤١].

المرتبة الرابعة: الخلق والإيجاد الشامل:

هذه هي مرتبة تجلي القدرة الإلهية. فكل ما سوى الله وصفاته فهو مخلوق لـه. الله هـو الخـالق، ومـا سـواه مخلوق. وهذا يشمل أعيان المخلوقات، وصفاتهم، وأفعالهم. وأصرح آية في هـذا البـاب هـي قولـه تعـالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٤٢]. لقد حاول المعتزلة تأويلها بأن "ما" موصولة تعود على الأصنام التـي كـانوا يعملونها بأيديهم. ويرد عليهم أهل السنة بأن السياق والمعنى اللغوي أوسع من ذلك، فـ "ما" يمكن أن تكون مصدرية، والمعنى: خلقكم وعملكم. وحتى لو كانت موصولة، فإن عملهم للأصـنام هـو فعـل مـن أفعـالهم، والآية تنص على أنه مخلوق لله. ولكن الآية الأكثر عمومًا وقطعية هي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ﴾ [٤٣]. وأفعال العباد بلا شك "شيء" من الأشياء، فهي تدخل في هذا العموم الشامل. فالله خلق في العبد القدرة والإرادة، وهو الذي خلق الفعل الذي ينتج عن هذه القدرة والإرادة. فالعبد هو الفاعـل الحقيقـي لفعلـه، والله هو خالق العبد وخالق فعله [٤٤].

المبحث الثاني: السنة النبوية الشريفة: تفصيل وبيان لعقيدة القدر

جاءت السنة النبوية لتكون البيان العملي والتفصيلي لما أجمله القرآن. وفـي بـاب القـدر، كانـت الأحاديـث النبوية بمثابة النور الكاشف الذي لا يترك لبساً.

حديث أركان الإيمان (حديث جبريل):

هذا الحديث هو دستور العقيدة الإسلامية. فعندما جاء جبريل فـي هيئـة رجـل يسـأل النبـي صـلى الله عليـه وسلم أمـام أصـحابه لـيعلمهم دينـهم، كـان سـؤاله عـن الإيمـان، وجـاء الجـواب النبـوي واضـحاً حاسـماً: "...وتؤمن بالقدر خيره وشره". إن جعل الإيمان بالقدر ركناً سادساً للإيمان يرفع هذه القضية من مسـتوى المسألة الفكرية إلى مستوى الأساس العقدي الذي لا يقوم بنيان الإيمان إلا به. فمـن أنكـر القـدر، فقـد هـدم ركناً من أركان دينه، وخرج من دائرة الإيمان الصحيح، كما فهم ذلك الصحابة الكرام وعلـى رأسـهم عبـد الله بن عمر حين تبرأ من القدرية [٤٥].

الأحاديث المفصلة للكتابة والتقدير:

لم تكتفِ السنة بتقرير المبدأ، بل فصلته. حديث عبد الله بن عمرو: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلـق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة" [٤٦]. هذا الحديث يصور الأزلية المطلقة للتقـدير الإلهـي، ويقطـع أي

---

[٤١] الطبري، جامع البيان عن تأويل آيات القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ، ج ٢٤، ص ١٦٦.

[٤٢] سورة الصافات: ٩٦.

[٤٣] سورة الزمر: ٦٢.

[٤٤] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ، ج٨، ص ١١٥.

[٤٥] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، حديث رقم ٥٠، ج ١، ص ٢٠.

[٤٦] مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري (المتوفى سنة ٢٦١هـ). المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم). تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. الموضع: كتاب القدر، باب حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام، حديث رقم ٢٦٥٣، ج ٤، ص ٢٠٤٤.

صلة بين التقدير وبين استحقاق المخلوق. فالأمر مقدر قبل وجود أي عمل أو استحقاق. وفي حديث عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة" [٤٧]. هذه الأحاديث تغرس في القلب تعظيم الله ومعرفة مدى إحكام تدبيره لملكه.

حديث الجمع بين القدر والعمل:

وهو من أروع الأحاديث التي تقدم المنهج النبوي العملي في هذه القضية. فعندما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أنه "ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار"، ثار في نفوسهم السؤال المنطقي: "يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟". هذا هو سؤال كل عقل بشري يواجه فكرة القدر. فجاء الجواب النبوي الحكيم الذي يضع النقاط على الحروف: "لا، اعملوا، فكل ميسر لما خلق له...". لم يقل لهم: "القدر غير حقيقي"، ولم يقل: "اتكلوا"، بل قال: "اعملوا". لقد ربط بين العمل والغاية المقدرة. فالعمل هو الطريق الذي جعله الله سبباً للوصول إلى ما قدره. فالقدر لا يبطل الأسباب، بل يتضمنها. فكما أن الله قدر الشبع، فقد قدر له سبباً وهو الأكل. وكما قدر الري، قدر له سبباً وهو الشرب. كذلك قدر الجنة، وقدر لها سبباً وهو العمل الصالح. فالإيمان بالقدر دافع للعمل، لا مبرر للكسل [٤٨].

المبحث الثالث: المنهج السلفي الفريد في فهم نصوص القدر

لم يكن السلف مجرد رواة للنصوص، بل كانوا أصحاب منهج فريد في الفهم والاستنباط، وهو المنهج الذي عصمهم من الانزلاق إلى طرفي الغلو: الجبر أو القدر. ويقوم منهجهم على أسس متينة:

أولاً: الجمع الشامل بين النصوص وعدم ضرب بعضها ببعض:

أدرك السلف أن الوحي كلٌ متكامل لا يتناقض. فآيات إثبات المشيئة الإلهية الشاملة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وآيات إثبات مشيئة العبد واختياره ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، كلاهما حق وصدق. منهج الفرق المنحرفة كان انتقائياً: فالجبرية أخذوا بالنوع الأول من الآيات وأهملوا الثاني، والمعتزلة أخذوا بالثاني وأولوا الأول. أما منهج السلف فكان الجمع والتصديق بالكل، وإدراك أن مشيئة العبد حقيقية وموجودة، ولكنها ليست مستقلة، بل هي واقعة تحت مشيئة الله الخالق. فالله خلق العبد وخلق له القدرة على المشيئة، فهو يشاء حقيقة، والله يشاء ما سيشاؤه العبد، فيكون فعل العبد فعله حقيقة، وهو خلق الله حقيقة [٤٩].

ثانياً: التفريق الدقيق بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الدينية الشرعية:

وهذا من أدق وأهم أصول السلف في هذا الباب، وبه تنحل أعظم الإشكالات.

---

[٤٧] أبو داود، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (المتوفى سنة ٢٧٥هـ). سنن أبي داود. تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي. دمشق: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م. الموضع: كتاب السنّة، باب في القدر، حديث رقم ٤٢٣٤، ج ٥، ص ٩٧; الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة (المتوفى سنة ٢٧٩هـ). الجامع الكبير (سنن الترمذي). تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م. الموضع: أبواب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في أن أول شيء خُلق القلم، حديث رقم ٢١٣٠، ج ٤، ص ٤٠.

[٤٨] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، ج ١١، ص ٤٩٧.

[٤٩] اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد الغامدي، دار المأمون، ط١، ١٤٠٧هـ، ص ١٣٨.

الإرادة الكونية القدرية: هي "المشيئة". وهي شاملة لكل ما يقع في الكون، خيره وشره، إيمان وكفر. فكل ما أراده الله كوناً لا بد أن يقع. وهي لا تستلزم محبة الله للمُراد. فالله أراد كوناً وجود إبليس وكفره، ولكنه لا يحب الكفر. ودليلها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

الإرادة الدينية الشرعية: هي "المحبة والرضا". وهي لا تتعلق إلا بما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الصالحة. وهذه قد تقع من العبد وقد لا تقع. فالله أراد شرعاً وديناً من كل الناس أن يؤمنوا، ولكنه لم يقع من كثير منهم. ودليلها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

بهذا التفريق، نفهم كيف أن الكفر والمعاصي تقع بمشيئة الله الكونية (فهو خالقها ومقدرها)، ولكنها لا تقع بإرادته الشرعية (فهو يكرهها ويبغضها ونهى عنها). وهذا يجمع بين إثبات كمال القدرة الإلهية، وتنزيه الله عن محبة الشر والرضا به [٥٠].

ثالثاً: الاحتجاج بالقدر في المصائب، لا في المعايب:

وهو المنهج العملي التربوي. فالمؤمن إذا نزلت به مصيبة لا اختيار له فيها (كمرض أو فقر أو موت حبيب)، فإنه يصبر ويسلم ويحتسب، ويقول: "قدر الله وما شاء فعل". فالاحتجاج بالقدر هنا محمود لأنه يورث الرضا والتسليم. أما إذا ارتكب معصية باختياره وإرادته (كزنا أو سرقة أو ترك صلاة)، فلا يجوز له أن يقول: "الله قدر عليّ ذلك" لتبرير ذنبه. بل الواجب عليه أن يلوم نفسه، ويندم، ويتوب، ويستغفر. فالقدر حجة للمؤمن عند البلاء، وليس حجة للعاصي عند المعصية. والشاهد على ذلك هو حجاج آدم وموسى عليهما السلام، فآدم لم يحتج بالقدر على "المعصية" نفسها، بل على "المصيبة" التي ترتبت عليها وهي إخراجه من الجنة [٥١]. إن من يحتج بالقدر على المعصية متناقض، لأنه لو اعتدى عليه أحد وسرق ماله، لما قبل منه أن يحتج بالقدر، بل سيطالبه بحقه. فلماذا يحتج به لنفسه ولا يرضاه من غيره؟ هذا دليل على اتباع الهوى لا الحق.

الفصل الرابع: آثار الإيمان بالقضاء والقدر على عقيدة المسلم وسلوكه

لا يُعد الإيمان بالقضاء والقدر مجرد قضية نظرية تُدرس في بطون الكتب، أو جدلية كلامية تهدف إلى إثبات الحجج العقلية، بل هو ركن إيماني عميق، إذا استقر في قلب المؤمن واستوعبه عقله على الوجه الصحيح الذي بيّنه الوحي وسار عليه السلف الصالح، فإنه يتحول إلى طاقة روحية هائلة وقوة دافعة تُحدث ثورة في حياة الإنسان، فتعيد تشكيل تصوراته عن الكون والحياة، وتهذب سلوكه وأخلاقه، وتضبط انفعالاته ومشاعره. إن هذا الإيمان هو سر الطمأنينة والقوة التي تميز الشخصية المسلمة المتوازنة.

المبحث الأول: تحقيق التوحيد الخالص وإخلاص العبادة لله

إن جوهر الإيمان بالقضاء والقدر هو الاعتراف المطلق بكمال ربوبية الله تعالى، والإقرار بأنه الخالق الأوحد، والمدبر الأوحد، والمالك الأوحد لهذا الكون. وهذا الاعتراف، إذا صدق، يقطع كل جذور الشرك الظاهر والخفي من قلب العبد.

١. إفراد الله بالخلق والتدبير: حين يعلم المؤمن يقيناً أن كل ما في الكون، من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة، وكل حدث، من حركة ورقة شجر إلى قيام الدول وسقوطها، هو بتقدير الله وعلمه ومشيئته

---

[٥٠] ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٠، ١٤١٧هـ، ج ١، ص ٣٠٢.

[٥١] ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: أحمد الغامدي، دار طيبة، ط١، ١٤١٥هـ، ص ١٣٠.

وخلقه، فإنه يدرك تفاهة كل ما سوى الله. يدرك أن المخلوقات، مهما عظمت في عينه، هي مجرد أسباب سخّرها الله، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله. هذا اليقين يحرر قلبه من التعلق بالأسباب، فلا يرجو مخلوقاً، ولا يخاف مخلوقاً، ولا يتوكل على مخلوق. إن الذي يعتقد أن فلاناً من الناس بيده رزقه، أو أن جهة ما تملك مستقبله، ففي إيمانه بالقدر خلل عظيم. فالله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين، وكل ما يصل إلى العبد من خير، إنما هو بتقدير الله الذي أجرى هذا الخير على يد بعض خلقه، فالشكر والحمد والرجاء يجب أن يتوجه إلى مسبب الأسباب لا إلى الأسباب ذاتها [٥٢].

٢. تحرير القلب من عبودية الخوف والرجاء لغير الله: يغرس الإيمان بالقدر في القلب حقيقة قرآنية راسخة، لخصها النبي صلى الله عليه وسلم في وصيته لابن عباس: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف" (الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح). من استوعب هذه الحقيقة، كيف يمكن أن يخاف من طاغية أو يرجو من غني؟ إن الخوف الحقيقي يصبح من الله وحده، والرجاء الحقيقي لا يكون إلا في الله وحده. وهذا هو لب التوحيد العملي الذي يحرر الإنسان من كل العبوديات المذلة للبشر أو الحجر أو الأهواء، ويجعله عبداً خالصاً لرب البشر، وهذه هي قمة الحرية الإنسانية [٥٣].

المبحث الثاني: غرس الشجاعة والإقدام في مواجهة الشدائد

إن الإيمان بالقدر هو أعظم مصدر للشجاعة والثبات في المواقف الصعبة، سواء في ميادين الجهاد أو في ميادين الحياة ومواجهة الظلم.

١. اليقين بأن الأجل والرزق مقدران: يعلم المؤمن أن أجله محتوم، لن يتقدم لحظة ولن يتأخر لحظة. قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [٥٤]. ويعلم أن رزقه مكتوب وسيأتيه لا محالة. هذا اليقين يطرد من قلبه الخوف من الموت والجبن عن قول الحق خشية قطع الرزق. فالذي يخرج في سبيل الله يعلم أنه لن يموت إلا في اللحظة التي كتبها الله له، سواء كان في فراشه أو في ساحة المعركة. والذي يصدع بكلمة الحق أمام سلطان جائر، يعلم أن هذا السلطان لا يملك أجله ولا رزقه. هذه العقيدة هي التي صنعت تلك النماذج الفريدة من الشجاعة في تاريخ الإسلام، من الصحابة الذين واجهوا جيوشاً تفوقهم عدداً وعدة بقلوب ثابتة، إلى العلماء الذين وقفوا في وجه الظلمة ولم تأخذهم في الله لومة لائم [٥٥].

٢. تحويل مفهوم المصيبة من "نهاية" إلى "ابتلاء": إن الذي لا يؤمن بالقدر ينظر إلى المصائب على أنها ضربات عشوائية من الدهر، أو نهايات محبطة تدمر حياته. أما المؤمن بالقدر فينظر إليها بمنظار مختلف تماماً؛ إنها ابتلاء من الله، مقدر بحكمة، يهدف إلى اختبار صبره، وتكفير سيئاته، ورفع درجاته. قال صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد

---

[٥٢] ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ، ج ١، ص ١٨٨.

[٥٣] ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ، ج ١، ص ٤٧٠.

[٥٤] سورة الأعراف: ٣٤.

[٥٥] ابن تيمية، العقيدة الواسطية، تحقيق: بدر البدر، مكتبة العرفاء، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٨٠.

إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً لـه" [٥٦].
هذا الفهم يحول طاقة الحزن واليأس إلى طاقة صبر ورجاء، ويجعل المؤمن يخرج من المحنة أقوى إيماناً وأكثر صلابة مما كان عليه قبلها.

المبحث الثالث: تحقيق الطمأنينة النفسية والرضا القلبي

في عصر يمتلئ بالقلق والتوتر والاكتئاب، يأتي الإيمان بالقضاء والقدر كبلسم شافٍ للنفوس، ومرساة أمان للسفينة في خضم بحر الحياة الهائج.

١. السكينة عند نزول البلاء: كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، فإن استحضار هذه الحقيقة عند وقوع المصيبة يمنع القلب من الانهيار والجزع. فالمؤمن يعلم أن ما جرى هو بعلم الله وحكمته، وأنه لم يكن ليمنعه، فيستسلم لأمر الله استسلام العارف بحكمة مولاه، وهذا التسليم يورث القلب برداً وسلاماً وطمأنينة لا مثيل لها. إنه يقطع الطريق على "لو"، التي تفتح عمل الشيطان، فلا يقول: "لو أني فعلت كذا لكان كذا"، بل يقول: "قدر الله وما شاء فعل"، فيغلق باب الحسرة والندم على الماضي، ويركز على كيفية التعامل مع الحاضر والمستقبل [٥٧].
٢. التواضع عند حصول النعماء: كما أن الإيمان بالقدر يمنع الجزع عند المصيبة، فإنه يمنع البطر والكبر عند النعمة. فالمؤمن يعلم أن ما وصل إليه من نجاح أو ثروة أو منصب ليس بذكائه الخارق أو بجهده المحض، بل هو فضل من الله ورزق ساقه إليه وقدره له. هذا الشعور يجعله دائم الشكر لله، متواضعاً مع الخلق، ينسب الفضل إلى صاحبه الحقيقي، فلا يطغى ولا يتجبر. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [٥٨]، أي فرح بطر وغرور، بل يكون فرحه فرح شكر واعتراف بالمنة [٥٩].

المبحث الرابع: الدافعية نحو العمل والأخذ بالأسباب

وهذا من أهم الآثار التي يسيء فهمها الكثيرون، حيث يظن البعض أن الإيمان بالقدر يستلزم التواكل والقعود عن العمل. وهذا فهم مغلوط تماماً ومنحرف عن هدي الإسلام.

١. فهم أن الأسباب من جملة القدر: إن منهج أهل السنة والجماعة يقوم على أن الله قدر النتائج وقدر أسبابها معاً. فالله قدر الشبع، وقدر له سبباً هو الأكل. وقدر النجاح، وقدر له سبباً هو المذاكرة والاجتهاد. وقدر دخول الجنة، وقدر له سبباً هو الإيمان والعمل الصالح. فالذي يترك الأخذ بالأسباب بحجة الإيمان بالقدر هو كمن يرفض الأكل والشرب منتظراً الشبع والري، وهذا جهل وسفه. فالأخذ بالأسباب هو عين العبادة والامتثال لأمر الله، والتوكل على الله هو الاعتماد القلبي على مسبب الأسباب بعد بذلها. فالإيمان بالقدر لا يلغي الأسباب، بل يصحح نظرتنا إليها؛ فنحن نأخذ بها لأن الله أمرنا بذلك، ولكننا لا نعتمد عليها، بل على الله الذي خلقها وجعل فيها التأثير [٦٠].

---

[٥٦] مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، كتاب الزهد والرقائق، باب الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، حديث رقم ٢٩٩٩، ج ٤، ص ٢٢٩٥.
[٥٧] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ، ج ٢، ص ٣٢٧.
[٥٨] سورة الحديد: ٢٣.
[٥٩] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ص ٨٤١.
[٦٠] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ، ج ٨، ص ١٦٩.

٢. العمل الدؤوب مع راحة القلب: الإيمان بالقدر يمنح المسلم معادلة فريدة: "جد في الأسباب كأنها كل شيء، ثم توكل على الله كأنها ليست بشيء". فهو يعمل ويخطط ويبذل قصارى جهده، لأنه مأمور بذلك. ولكنه في الوقت نفسه مطمئن القلب هادئ النفس، لأنه يعلم أن النتيجة النهائية بيد الله وحده. فإن نجح، شكر الله على توفيقه. وإن فشل بعد بذل الجهد، صبر ورضي، وعلم أن هذا هو الخير الذي قدره الله له، فقد يكون الله قد صرف عنه شراً أكبر لم يره. هذه المعادلة تحرر الإنسان من "قلق النتائج" المدمر، وتجعله يركز على إتقان "العمل" المطلوب منه، تاركاً أمر الثمرة لرب الأرباب. وبهذا يكون الإيمان بالقدر هو أكبر محفز على السعي والعمل، وليس العكس.

خاتمة البحث

في ختام هذا البحث الذي سعى إلى استجلاء مسألة "القضاء والقدر بين الجبر والاختيار في ضوء العقيدة الإسلامية"، نصل إلى مجموعة من النتائج الحاسمة التي تؤكد على عظمة ودقة المنهج الإسلامي في معالجة هذه القضية العقدية العميقة.

لقد أوضح البحث أن الإيمان بالقضاء والقدر، بمراتبه الأربع (العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق)، يمثل ركناً أساسياً من أركان الإيمان، لا يصح إيمان عبد إلا به، وهو يقوم على أدلة قطعية من الكتاب والسنة لا سبيل إلى إنكارها. كما بيّن البحث أن الانحراف عن الفهم الصحيح لهذه العقيدة قد أدى عبر التاريخ الإسلامي إلى ظهور فرق غالية، كالجبرية التي سلبت الإنسان إرادته، والقدرية (المعتزلة) التي أخرجت أفعال العباد عن قدرة الله وخلقه، مما أحدث خللاً في التصور الإسلامي المتوازن.

وقد تجلى بوضوح أن المنهج الحق هو منهج أهل السنة والجماعة، منهج السلف الصالح، الذي استطاع بعبقرية فريدة أن يجمع بين النصوص التي تثبت كمال الربوبية وشمول القدرة الإلهية، والنصوص التي تثبت للعبد اختياراً حقيقياً ومسؤولية كاملة عن أفعاله. فهذا المنهج لا يرى تعارضاً بين أن يكون الله هو الخالق لكل شيء، وبين أن يكون العبد هو الفاعل الحقيقي لفعله الذي يُحاسب عليه، فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، وليست مستقلة عنها.

وأخيراً، أظهر البحث أن الآثار العملية للإيمان بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح هي آثار عظيمة وجليلة، فهو ليس عقيدة خاملة تدعو إلى الكسل، بل هو مصدر قوة وشجاعة وطمأنينة، ومحفز على العمل والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله. إنه العقيدة التي تحرر الإنسان من عبودية الأسباب والمخلوقين، وتصله مباشرة بخالقه، فيعيش متوازناً، صابراً في الضراء، شاكراً في السراء، مقداماً في الحق، راضياً بقضاء ربه في كل حين.

ونوصي في نهاية هذا البحث بضرورة العناية بتدريس هذه العقيدة العظيمة للأجيال المسلمة بأسلوبها الصحيح المستمد من الكتاب والسنة بفهم السلف، لتكون حصناً لهم من الانحرافات الفكرية، ومنبعاً للطاقة الإيجابية التي تبني الفرد والمجتمع.

المصادر:

القرآن الكريم.

- ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٠، ١٤١٧هـ، ج ١.
- ابن بطة العكبري، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، تحقيق: عثمان الأثيوبي، دار الراية، ط١، ١٤١٥هـ.
- ابن تيمية، العقيدة الواسطية، تحقيق: بدر البدر، مكتبة العرفاء، ط١، ١٤١٥ه.

- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ، ج ٨.
- ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٤٠٦هـ، ج٣.
- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، ج ١١.
- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ، ج ١.
- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، ط١.
- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ، ج ٢.
- ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: أحمد الغامدي، دار طيبة، ط١، ١٤١٥هـ.
- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ، ج ١.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد وآخرون، دار عالم الكتب، ط١، ١٤١٧هـ، ج ٨.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (المتوفى سنة ٢٧٥هـ). سنن أبي داود. تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي. دمشق: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م. الموضع: كتاب السنّة، باب في القدر، حديث رقم ٤٢٣٤، ج ٥.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة (المتوفى سنة ٢٧٩هـ). الجامع الكبير (سنن الترمذي). تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م. الموضع: أبواب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في أن أول شيء خُلق القلم، حديث رقم ٢١٣٠، ج ٤.
- الأسفراييني، التبصير في الدين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، حديث رقم ٥٠، ج ١.
- البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة.
- البيهقي، القضاء والقدر، تحقيق: محمد بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.
- الجوهري، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.
- الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: عصام قليعجي، دار المأمون، ط١، ١٤٠٧هـ.
- الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.
- الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، ج ٣.
- الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م.

- الصابوني، عقيدة السلف أصحاب الحديث، تحقيق: بدر البدر، مكتبة الغرباء، ط١، ١٤١٥هـ.
- الطبري، جامع البيان عن تأويل آيات القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ، ج ٢٤.
- الطبري، جامع البيان عن تأويل آيات القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ، ج ٢٤.
- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
- اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد الغامدي، دار المأمون، ط١، ١٤٠٧هـ.
- محمد جواد مغنية، الإسلام والعصر، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، كتاب الزهد والرقائق، باب الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، حديث رقم ٢٩٩٩، ج ٤.
- مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري (المتوفى سنة ٢٦١هـ). المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم). تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. الموضع: كتاب القدر، باب حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام، حديث رقم ٢٦٥٣، ج ٤.